الرئيسية ثقافة

تمدَّد نحو دمشق استراتيجياً..لكن هل حكم فخر الدين المدينة؟

فارس الذهبي | الأربعاء 2026/03/18

ارتبط اسمه بقلعة تدمر لكنه لم يكن بانيها

مشاركة عبر

حجم الخط

إعلان

يشغل الأمير فخر الدين المعني الثاني، مكانة بارزة في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني، بوصفه حاكمًا محليًا في جبل لبنان، وأيضًا بوصفه صاحب مشروع توسّع سياسي وعسكري حاول أن ينقل مركز ثقله من الجبل إلى فضاء شامي أوسع. ومن هنا تأتي أهمية النظر في علاقته بتدمر والداخل السوري، وفي السؤال عمّا إذا كان قد حكم دمشق فعلاً، وكيف تلقّت الجماعات المحلية تمدّده نحو المناطق الداخلية.

بدأ صعود فخر الدين المعني الثاني داخل البنية العثمانية نفسها، لا خارجها. فقد كان واحدًا من الزعامات المحلية التي استفادت من طبيعة الحكم العثماني في الولايات العربية، حيث اعتمدت الدولة في كثير من الأحيان على نخب محلية لضبط الجباية وحفظ الأمن في المناطق الصعبة جغرافيًا أو اجتماعيًا. وفي هذا السياق، تمكن فخر الدين من توحيد مناطق درزية ومارونية في جبل لبنان تحت سلطته الشخصية، ثم أخذ يوسّع نفوذه تدريجيًا، مستفيدًا من انشغال الدولة العثمانية بحروبها الخارجية ومن المرونة التي اتسم بها الحكم العثماني في الأطراف ما دام الخراج يصل وما دام التوازن العام لا ينهار. لهذا لا يصحّ وصفه بدقة بوصفه "حاكمًا مستقلاً" بالمعنى الحديث، لكنه في الوقت نفسه تجاوز بكثير حدود زعيم محلي عادي.

يمكن تفسير تمدّد فخر الدين نحو الداخل السوري بثلاثة دوافع مترابطة. أولها الدافع السياسي، ويتمثل في رغبته في تحطيم خصومه المحليين وتثبيت موقعه في مواجهة ولاة دمشق وطرابلس والزعامات المناوئة له. وثانيها الدافع الاقتصادي، لأن السيطرة على المناطق الداخلية تعني توسيع دائرة الجباية، وتأمين الطرق التجارية، وربط الساحل بموارده الزراعية والبدوية. أما ثالثها فهو الدافع الاستراتيجي العسكري، إذ إن الانتشار في البقاع والبادية

ومفاصل الطريق الداخلي كان يوفّر عمقًا دفاعيًا لإمارته ويمنحه القدرة على المناورة في وجه أي حملة عثمانية أو خصم محلي. وقد انتهى الأمر، إلى أن فخر الدين صار بحلول العام1631 مهيمنًا على معظم سوريا ولبنان وفلسطين من حيث النفوذ الفعلي، والسيادة القانونية الحديثة .

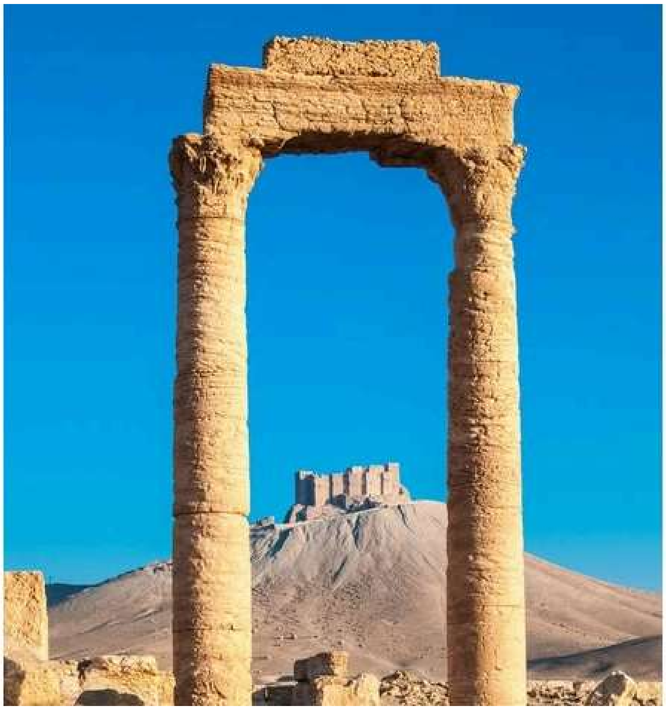

في هذا الإطار تكتسب تدمر معناها. فهذه المدينة لم تكن فقط مجرّد موقع صحراوي بعيد، بل نقطة استراتيجية على تخوم البادية، تسمح بمراقبة المجال الداخلي والتحكم بجزء من مسالك العبور والاتصال بين المراكز العمرانية والفضاء البدوي. ولهذا ارتبط اسمه بالقلعة القائمة فوق الهضبة المشرفة على تدمر. غير أن القول إنه بنى قلعة تدمر، يحتاج إلى تصحيح علمي. فالدراسة المعمارية التي نشرتها مؤسسة ماكس فان برشم، استنادًا إلى مسح أثري للقلعة، تذكر بوضوح أن القلعة منسوبة تقليديًا إلى فخر الدين، لكن المصادر تشير إلى أنه ضم تدمر وقلعتها سنة 1630 وعزّز أسوارها، في حين تُفيد شهادة تاريخية من القرن الثالث عشر بأن أصل القلعة يعود إلى العهد الأيوبي، وبالتحديد إلى نحو سنة 1229. وتخلص الدراسة نفسها إلى أن البنية الأساسية للقلعة ترجع إلى القرن الثالث عشر، مع احتمال إعادة شغلها أو ترميمها في القرن السابع عشر. وهذا يعني أن فخر الدين لم يشيدها من

العدم، بل على الأرجح أعاد استخدامها وحصّنها، ومن هنا جاءت شهرتها باسمه حتى اليوم.

وهنا تظهر آلية صناعة الأسطورة التاريخية بوضوح. فحين يرتبط اسم حاكم بموقع حصين بارز، تميل الذاكرة العامة إلى اعتباره الباني الأول، بينما تكشف القراءة الأثرية أن الأمر أقرب إلى إعادة توظيف سياسي وعسكري لبناء أقدم. وهذه مسألة منهجية مهمة؛ لأن التمييز بين "الضم والتحصين" و"الإنشاء الأصلي" يغيّر فهمنا لطبيعة حضور فخر الدين في تدمر: هل كان مشروعه مشروع عمران جديد، أم مشروع سيطرة على عقد القوة القائمة؟ والراجح أنه كان، في هذه الحالة، مشروع سيطرة وتحويل للموقع إلى نقطة ارتكاز في شبكته الإقليمية .

أما دمشق، فلم يحكمها فخر الدين حكمًا رسميًا مباشرًا بوصفه واليًا عثمانيًا عليها. فالمدينة بقيت مركزًا لولاية عثمانية قائمة بذاتها، وكان عليها والٍ تابع للباب العالي. لكن هذا لا يعني أن دمشق كانت خارج معادلة قوته. فقد بلغ نفوذه درجة مكّنته من هزيمة والي دمشق في معركة عنجر سنة 1623 وأسرِه، كما أن التوسع المعني في البقاع ومحيط دمشق جعل ميزان القوى في الولاية الدمشقية شديد الحساسية تجاهه. بعض ولاة دمشق أنفسهم

شجعوا أحيانًا تمدده على حساب خصوم آخرين، في لعبة توازنات عثمانية محلية معقّدة.

لم يعنِ التمدد "المعني" في ريف دمشق، إخضاع المدينة نفسها إداريًا، بل فرض نفوذ متدرّج على مجالها الزراعي والاستراتيجي، لا سيما عبر وادي التيم والبقاع الجنوبي ومحاور قَبّ إلياس وعنجر، أي في الحزام الذي يتحكم بطرق العبور بين جبل لبنان ودمشق. ففي الربع الأول من القرن السابع عشر، سعى فخر الدين المعني الثاني إلى تحويل هذا المجال إلى عمقٍ دفاعي ومالي لإمارته، مستفيدًا من نظام الالتزام العثماني ومن الصراع مع القوى المحلية المنافسة، وخصوصًا "الحرافشة" وهم عشائر اثني عشرية تحكم تاريخيًا البقاع، بحيث صار حضوره في تخوم دمشق حضورًا عسكريًا وماليًا أكثر منه حكمًا حضريًا مباشرًا. وتبرز سنة 1623 بوصفها لحظة مفصلية، إذ أدّى تمركزه في قبّ إلياس وإزاحته الحرافشة من البقاع الجنوبي، ثم انتصاره في عنجر على والي دمشق مصطفى باشا، إلى جعل ريف دمشق الغربي ومداخله جزءًا من مجال ضغطه السياسي على الولاية الدمشقية.

لذلك، فالأدقّ تاريخيًا أن يُقال إن المعنيين مدّوا سلطانهم إلى أرياف دمشق وممرّاتها الحيوية، لا أنهم حكموا دمشق نفسها؛ فقد كان هدفهم السيطرة على الأرض الزراعية وخطوط الحركة والجباية، بما يربط الجبل بالداخل السوري

ضمن مشروع نفوذ إقليمي أوسع. وتبرز معركة عنجر سنة 1623 بوصفها محطة مفصلية في هذا التمدد، إذ استطاع فخر الدين هزيمة والي دمشق مصطفى باشا وأسره، ما أظهر مدى القوة التي بلغها نفوذه في تخوم الولاية الدمشقية. ومع ذلك، فإن هذا النفوذ لم يتحول إلى حكم إداري مباشر لدمشق نفسها، التي بقيت مركزًا لولاية عثمانية مستقلة، بل ظل تأثيره يتمثل في الضغط على محيطها الريفي والتحكم في ممراته الحيوية. وبهذا المعنى يمكن القول إن التمدد المعني في ريف دمشق كان استراتيجية للسيطرة على المجال الاقتصادي والعسكري المحيط بالعاصمة الشامية، أكثر منه محاولة لاحتلال المدينة أو إدارتها مباشرة.

ارتبط حكم فخر الدين في بعض المناطق بتحسين الإنتاج الزراعي وتشجيع التجارة وتحصين بعض المواقع واستعادة الاستقرار النسبي، وهو ما يمكن أن يكون قد أفاد شرائح من الفلاحين والتجار وسكان المراكز العمرانية. ومن جهة أخرى، كانت هذه السياسة تحتاج إلى موارد مالية ضخمة، وقد أشارت المصادر إلى أن جمع الثروة تم في أحيان كثيرة عبر الضغط والجباية والإكراه، كما أن فخر الدين اضطر إلى توسيع حصته من فوائض الالتزام على حساب الأهالي مع ازدياد نفقاته العسكرية.

والأرجح، تاريخيًا، أن ردود الفعل في الداخل السوري كانت متفاوتة بحسب الموقع الاجتماعي والجغرافي. فالفئات المرتبطة بالتجارة والأمن المحلي ربما رأت في تمدده فرصة للاستقرار أو لموازنة قوى محلية أخرى، بينما نظرت إليه النخب العثمانية والمدينية، ولا سيما في البيئة الدمشقية الرسمية، على أنه أمير مفرط الطموح يهدد الترتيب العثماني نفسه. كما أن تكاثر الشكاوى ضده في إسطنبول في أواخر عهده يدل على أن خصومه كانوا كثر، وأن توسعه لم يُستقبل على أنه أمر طبيعي أو مشروع من الجميع.

انتهى مشروع فخر الدين حين رأت الدولة العثمانية أن نفوذه تجاوز الحد المسموح به. فكل إمبراطورية لديها هذا المنطق البارد: تستفيد من الرجل القوي ما دام مفيدًا، ثم تعتبره خطرًا حين يكبر أكثر من اللازم. وقد انتهت سيرة فخر الدين بهزيمته ثم القبض عليه وإعدامه في القسطنطينية سنة 1635. لكن تجربته بقيت ذات أثر كبير، لأنها كشفت هشاشة الحدود بين "الزعامة المحلية" و"السلطة الإقليمية" في بلاد الشام العثمانية، كما كشفت أن الداخل السوري لم يكن هامشًا منفصلاً عن جبل لبنان، بل جزءًا من مجال سياسي متداخل كانت تدمر والبقاع ومحيط دمشق عناصره الحيوية .

مراجع مختارة

اعتمدتُ في هذا النص على المراجع الآتية:

- Encyclopaedia Britannica, “Fakhr al-Dīn II.”
- Janusz Bylinski, “Survey of the Arab Castle in Palmyra,” Fondation Max van Berchem.
- Stefan Winter, *The Shiites of Lebanon under Ottoman Rule, 1516–1788*، الفصل الخاص بالحكم العثماني في المرتفعات الساحلية.
- مادة Brill/Encyclopaedia of Islam عنFakhr al-Din Maʿn II ،

مقالات اخرى للكاتب

زاوية الهنود الدمشقية: عبور وزُهد وولادة جديدة مُشتهاة

القنيطرة..عاصمة الشتات الشركسي

التبغ الشرقي: "لاتاكيا" الضائع

حينما مُنعت القهوة والسجائر كخطر أخلاقي وسياسي

الأكثر قراءة

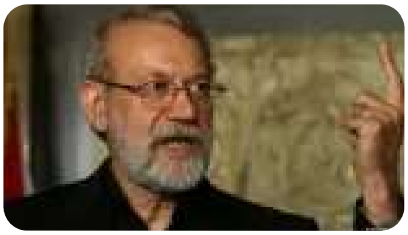

علي لاريجاني: الكانطية لم تخفف حدّة "حرسيّته"

في خضمّ الحرب نسأل: ما قيمة الإنسان؟ وأي معنى للحياة؟

فيليب عرقتنجي يعرض "أسرار مملكة بيبلوس" في اللوفر

"لبنان وسوريا" بعينَي ساطع نور الدين: ضد الاستسلام للتاريخ

إعلان

تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي

إشترك في النشرة الإخبارية ليصلك كل جديد

اشترك معنا في نشرة المدن الدورية لتبقى على اتصال دائم بالحدث

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك الآن

إعلان

جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى

جريدة "المدن" الإلكترونية جريدة إلكترونية مستقلة مقرها بيروت تمثل التيار المدني اللبناني والعربي

روابط سريعة

معلومات

النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون من المطلعين على الخبر في لحظة ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك

© جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2026 محتويات هذه الجريدة محمية تحت رخصة المشاع الإبداعي